

## الفصل الثانى

### الجاهلية

بدأ محمد (ﷺ) التحدث عن الوحي لمجموعة صغيرة من أصدقائه وأقربائه المقربين، الذين أصبحوا حواريين متعاطفين ومتحمسين، مقتنعين أنه نبي العرب الذى طال انتظاره. ولكن أدرك محمد (ﷺ) أن معظم قريش سوف تعتبر ذلك أمراً لا يمكن قبوله؛ لأن معظم رسل الله كانوا رموزاً ضخمة فى مجتمعاتهم، ومؤسسة لها، وكان بعضهم أصحاب معجزات، فكيف يمكن قياس محمد بموسى أو عيسى (صلوات الله عليهم)؟. لقد عاينته قريش وهو يشب، ويسعى فى الأسواق التجارية، ويأكل ويشرب مثل كل الناس. لقد تخلت قريش عن كثير من قيم المروءة، ولكنها استبقت مظاهر الصفوة والنخبة، وتوقعت أن يختار الله كبيراً من أكثر العشائر تميزاً، وليس شخصاً صغيراً من بنى هاشم. كيف سيكون رد فعلهم عندما يطلب منهم محمد (ﷺ) أن يتخلوا عن استغنائهم المتعطرس، فيتخلوا عن سنة أجدادهم؟.

منذ البداية، واجه محمد (ﷺ) المعارضة حتى داخل عائلته الكبيرة. فقد أمنت خديجة وأبناؤها وعلى وزيد بنبوته، إيماناً غير مشروط، وبرغم أن عمه أبا طالب استمر على حبه وتأييده له، فقد ألمه بعمق تهور محمد (ﷺ) فى ترك دين آبائه. كان محمد (ﷺ) يقسم العائلة، فقد آمن به جعفر بن أبى طالب، وعبد الله وأخوه عبيد الله بن جحش، وأختهما زينب، ولكن عميه العباس وحمزة لم يؤمنا، برغم أن زوجتيهما أمتا. ورفض أبو العاص زوج زينب بنت محمد (ﷺ) مجرد التفكير فى الدين الجديد، وبالطبع كان هذا يحزن محمداً (ﷺ). كان ترابط العائلة أحد قيم العرب المقدسة، واحترم محمد (ﷺ) - ككل العرب - كبار عشيرته وقبيلته، وتوقع

من الكبار أن يقودوا الآخرين إلى اتباعه، ولكن كانت الأجيال الشابة هي التي آمنت به. وبدأ الوحي - بالفعل - في إبعاد محمد (ﷺ) عن الأعراف السائدة، ولم يمكنه تجاهل أن كثيراً من أتباعه كانوا من المستضعفين من الطبقات الدنيا. كان كثير منهم من النساء، ورجال محررين، وخدم وعبيد، وكان في مقدمتهم بلال العبد الحبشي، ذو الصوت الجهورى الندى. وعندما كانوا يتجمعون للصلاة فى الحرم، كان يحيط به «صغار وضعفاء القوم». كان محمد (ﷺ) يرحب بهم بحرارة، ولكن لا بد وأنه كان يتعجب، كيف تنجح حركة بمثل هؤلاء الخاملى الذكر؟. وفى الواقع، بدأ بعض كبار قريش يسألونه لماذا يرافق مثل هؤلاء الرعا؟<sup>(١)</sup>.

لم يكن كل «خاملى الذكر» من أدنى الطبقات المهمشة، فقد عنى ذلك المصطلح القبائل متواضعة العدد والنسب، وليست الفقيرة. كان أكثر تابعى محمد (ﷺ) حماسة صديقه عتيق بن عثمان، أبابكر، التاجر الناجح الثرى، والذي جاء من عشيرة ضعيفة، تعرضت لأوقات عصيبة. كان أبو بكر سهل المعشر، ماهراً فى تأويل الأحلام.

قال ابن إسحاق: «وكان أبو بكر رجلاً مألماً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه». [السيرة النبوية لابن إسحاق، ط دار الكتب العلمية، ص ١٨٩].

كثيراً ما لجأ إليه شباب مكة الذين أزعجتهم شراسة أسماليتها، طلباً للنصيحة. أحس بعضهم بالخطر المحدق بالمجتمع المكى، وحذر من اليأس المحيط الذى وقع فيه، مع اغترابهم عن آبائهم. حلم ابن أحد كبار الموليين فى إحدى عشائر مكة ذات النفوذ، أن أباه يحاول أن يدفعه فى حفرة من نار، ثم أحس بيدين قويتين تنقذانه منها، وأدرك عند استيقاظه أن ذلك المنقذ كان محمداً (ﷺ).

قال ابن سعد : « كان إسلام خالد بن سعيد قديماً وكان أول إخوته ، أسلم وكان بدء إسلامه أنه رأى في النوم أنه وقف على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله به أعلم ، ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها ويرى رسول الله أخذاً بحقوقه لثلاثا يقع ، ففزع من نومه فقال : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق » .  
[طبقات ابن سعد ، ط دار الكتب العلمية : ٤ / ٥٢ : ٤ / ٨٨] (٣) .

شاب آخر ، هذه المرة من عشيرة عبد شمس المهيبة ، ذهب لأبي بكر ليسأله عن حلم سمع فيه صوتاً منادياً في الصحراء «استيقظوا أيها النيام!» معلناً عن ظهور نبي في مكة . أصبح الشابان مسلمين ، ولكن أخفى الأول إسلامه عن أبيه لأطول فترة استطاعها ، وأصاب الحنق الشديد كبار عشيرة الثاني ، والتي كانت صاحبة أعلى نفوذ في مكة .

قال ابن سعد : « خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله على أثر الزبير بن العوام فدخل على رسول الله (ﷺ) ، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله ، فأما وصدقا فقال عثمان : يا رسول الله ، قدمت حديثاً من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء ، فنحن كالنيام ، إذا مناد ينادينا أيها النيام هبوا ، فإن أحمد قد خرج بمكة ، فقدمنا فسمعنا بك » . [الطبقات : ٤ / ٥٢] (٤) .

أظهر الوحي صدعاً داخل مكة ، وبمضى السنوات عانت المدينة من انشقاق متزايد بين الشباب والكبار ، والأثرياء والفقراء ، وحتى الرجال والنساء . مثل ذلك خطراً . أدانت آيات الوحي عدم المساواة المكية ، حيث يعانى الطرف المحروم على يدى الطرف الغائم الحارم . الهلاك هو مآل المجتمع المنقسم على نفسه ، والانقسام هو ضد المعنى الحقيقي لكلمة مجتمع .

لقد كانت تلك فترة تاريخية مرعبة . بدت الحروب المستمرة بين الفرس والبيزنطيين وكأنها تبشر بنهاية النظام العالمى القديم ، وحتى داخل بلاد العرب ، بلغت الحروب مستوى مزمناً ، وتصاعدت الغزوات فى العشرين سنة الأخيرة لتجشم فترات أطول فى حملات عسكرية - بعد أن كانت عمليات خاطفة - كنتيجة لموجات الجفاف غير المسبوقة وما تبعها من مجاعات . لقد كان هناك هاجس رؤوى بكارثة وشيكة ، واقتنع محمد

(ﷺ) بأنه لو لم تصلح قريش من أمورها وأساليبها، فستقع هي الأخرى فريسة للفوضى التي تهدد العالم :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ١٦] (٥)

وبوحى إلهي، كان محمد (ﷺ) يتحسس طريقة لحل جديد كلية، مقتنعاً بأنه لا يتكلم باسمه وإنما هو يردد كلمات الله الموحاة له .

كان تلقى الوحي عملية شاقة مؤلمة، قال عنها النبي (ﷺ) : «لم يأتني الوحي إلا وظننت أن روحي سترهق» .

[قال السيوطي في الإتيان]: أخرج ابن سعد، عن عائشة، قالت: «كان رسول الله (ﷺ) إذا نزل عليه الوحي يغط، ويطرد وجهه، [أي: يتغير لونه] ويجد برداً في ثناياه، ويعرق حتى يتحدر منه مثل الجمان». [الإتيان، السيوطي - ط دار الكتب العلمية: ١/ ٩١]. وقد أخرج ابن سعد هذا الحديث برواية عبادة بن الصامت: أن النبي (ﷺ) كان إذا نزل عليه الوحي كرب له، وتربد وجهه. [الطبقات: ١/ ١٦٧] (٦).

عن عائشة أم المؤمنين: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله (ﷺ): «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. [البخاري، ط دار الكتب العلمية: ح رقم ٢] (٧).

كان عليه الإصغاء للتيارات التحتية للأحداث، محاولاً أن يكتشف حقيقة ما يجري. كان وجهه يشحب من المجهود، حتى أنه كان يغطي وجهه بردائه كما لو كان يحتمى من التأثير الإلهي الطاغى. كان يعرق بغزارة حتى في اليوم البارد، وهو ينسحب داخله بحثاً في روحه عن حل لمشكلة، فيما يشبه طريقة غوص الشاعر في أعماق نفسه بحثاً عن مستوى الإدراك في عقله. يأمر الله في القرآن محمداً (ﷺ) أن يتبع التنزيل، حتى ينقله كما هو تماماً، قبل أن يأتي البيان الإلهي له :

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤]، ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ [سورة القيامة: ١٦-١٨] (٨).

لذلك، فقد تكلم الله إلى أهل مكة بواسطة القرآن، من خلال محمد (ﷺ)، كما تكلم خلال أنبياء بنى إسرائيل بواسطة الكتاب المقدس. لذلك، يعتبر المسلمون لغة القرآن مقدسة؛ لأنها حملت كلمات الله. عندما يستمع أتباع محمد (ﷺ) إلى كلام الله، عند قراءة محمد (ﷺ)، وبعده المقرئون، يشعرون أنهم في لقاء مباشر مع الله. واللغة العبرية في العهد القديم من الكتاب المقدس، ينظر لها بالقدسية نفسها. ولكن ليس للمسيحيين مثل هذا المفهوم في اللغة (المقدسة)؛ لأنه ليس هناك مقدس في العهد الجديد بلغته اليونانية، وإنما قدمت نصوص العهد الجديد عيسى (ﷺ) على أنه كلمة الله للإنسانية. يهيم القرآن - مثل النصوص المقدسة الأخرى - لقاء مع الله، عابراً الفجوة الهائلة بين عالمنا الفاني الهش، والمقدس.

انتظر أتباع محمد (ﷺ) بلهفة كل تنزيل جديد، وبعد أن يتلوه عليهم، يحفظونه عن ظهر قلب، ويكتبه من يعرف الكتابة منهم. لقد أسرتهم بلاغته، والتي رأوا أنها لا يمكن إلا أن تكون إلهية المصدر، ومن الصعب على غير العرب تقدير جمال القرآن، والذي لا تحفظه الترجمة. يبدو النص كما لو كان تكراراً مملأً، وليس له بناءية ظاهرة، ولا حجة مستدامة، ولا رواية منظمة. ولكن لم يُصمم القرآن ليقرأ مرة واحدة. تم ترتيب سورة في شكله النهائي، بحيث تكون الأطول في البداية والأقصر في النهاية، مما جعل الترتيب يبدو اعتباطياً. تحتوي كل سورة على تعاليم رئيسية، ومن الممكن الانهماك في أي سورة من النص، واكتساب دروس حاسمة.

مثل معظم العرب في ذلك العصر، لم يكن محمد (ﷺ) يستطيع القراءة أو الكتابة. تعنى كلمة قرآن «القراءة». لم تهدف الكلمة إلى قراءة مفردة منعزلة، ولكن مثل معظم النصوص الدينية، المقصود بها القراءة بصوت عالٍ [لجماعة المستمعين]، وكان الصوت جزءاً من التأثير. كان الشعر مهماً عند العرب، فكان شاعر القبيلة هو المتكلم باسمها، ومؤرخها الاجتماعي، ومرجعها الثقافي، وتعلم العرب بمرور السنين كيفية الإصغاء لإلقاء الشعر، وكيفية تطوير أذن تتقن النقد وتحكمه (٩). روى شعراء

الملاحم غرائبهم فى أسواقهم السنوية ، لإثارة المستمعين من كل أنحاء الجزيرة . أقامت مكة كل عام فى سوق عكاظ مسابقة للشعر ، وطرزت القصيدة الفائزة بالذهب على قطعة ثمينة من القماش الأسود ، وعلقتها على جدران الكعبة . كان باستطاعة أتباع محمد (ﷺ) ، والعرب بصفة عامة ، تذوق الشعر ونقده ، ووجدوا تكرار الأفكار والكلمات والعبارات والرتابة الصوتية ، بمثابة التغيرات فى القطعة الموسيقية ، والتي تنطب برقة ودقة من اللحن الأصلي ، وتزيد عليه طبقة فوق طبقة من التركيب . التكرار فى القرآن مقصود ، فقد ربطت أصداؤه الداخلية أفكاره وصوره وقصصه لدعم تعاليمه الأساسية ، مع تحويل التركيز ، كما ربطت المقاطع التي بدت منفصلة ، ودمجت الأفرع المختلفة للنص القرآني ، حيث أكملت أو قيدت أو وضحت ، أية آيات أخرى . كان على المستمعين له - مثل محمد (ﷺ) - أن يتشربوا تعليماته بروية ، وينمو فهمهم ، بعمق ونضج ، مع الوقت ، وساعدتهم لغة القرآن الثرية ، والحافلة بالتلميحات والإيقاعات الصوتية ، على التأني فى إعمال فكرهم ، والدخول فى مزاج آخر من الوعي .

يصف العالم الأمريكى مايكل سيلز ماذا يحدث عندما يدير سائق النقل العام فى سيارته المزدحمة فى اليوم الحار فى مصر ، شريط قرآن : «يبدأ جو من التأمل الهادئ ، وينتهى التسابق على الكراسى ، ويخفف المتكلمون من أصواتهم ، وتقل حدتها ، يصمت الآخرون ، ويغيبون فى أفكارهم ، ويحل شعور بالتآلف محل العناء»<sup>(١٠)</sup> . ضبط الأنفاس ممارسة مهمة فى كل تقاليد التأمل . وجد ممارسو اليوجا أن ذلك يجلب شعوراً بالانفراج ، يمكن مقارنته بما تجلبه الموسيقى لعازفها<sup>(١١)</sup> . يقرأ مرتلو القرآن كلماته فى زفير بطيء طويل ، وعندما يتوقفون لالتقاط النفس ، يتركون صمماً للتدبر والتأمل . من الطبيعي أن يضبط المستمعون أنفاسهم كذلك ، ويجدوا فى ذلك تأثيراً مهدئاً شافياً ، يتيح لهم التقاط التعاليم الضمنية فى النص .

لا يدوى القرآن بأوامر هادرة من عل ، ويغير الخطاب الإلهي من الإشارة لنفسه بصفة مستمرة فى القرآن ، مثل «نحن» ، «إننا» ، «هو» «ربكم» ، «الله» ، «أنا» ، ليغير علاقته بكل من النبي (ﷺ) والمستمعين . ولا يوضح القرآن أن الله ذكر<sup>(\*)</sup> . تبدأ كل سورة

(\*) «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى : ١١] تنفى عن الله مسألة الذكورة والأنوثة التي تنطبق على بعض مخلوقات الله ، وكما قال على بن أبى طالب : «كل ما تخيلته ، فليس هو» .

بالبسمة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ . الله اسم مذكر، ولكن الرحمن والرحيم، مشتقتان من كلمة الرحم . ستجد تقريباً في كل السور المبكرة النزول في القرآن حديثاً عن الإناث، فمن تلميحات عن امرأة تحمل بطفل، أو تضع مولوداً، أو امرأة فقدت طفلها الوحيد، أو استغاثة مؤثرة من وليدة من وأد أبيها غير الراضيين عن ميلادها<sup>(١٢)</sup> . كان هذا الحضور القوي للإناث مشيراً للانتباه في مكة ذات المجتمع الشديد الذكورية، وقد يفسر ذلك لماذا كانت النساء من أول من استجاب لرسالة القرآن .

خاطب الله الأفراد بحميمية في السور الأولى للقرآن، مفضلاً عرض كثير من تعاليمه في شكل أسئلة: ألم تر؟ أفلا تبصرون؟ أفلا تعقلون؟ هل أتاك؟ . دعا القرآن كل مستمع لمساءلة نفسه، وكان أى رد مبهماً أو غير محدد، تاركاً للمستمع فضاء يتدبره ولكن بدون إجابة قاطعة . لم تكن تلك الديانة الجديدة تسعى لتأكيد يقين متجاوز للطبيعة، بل أراد القرآن أن يطور في الناس نوعاً مختلفاً من الوعي:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨)﴾ [سورة الانفطار: ١٧ - ١٨] ، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩)﴾ ، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيُونَ (١٩)﴾ [سورة المطففين: ٨ - ٩ ، ١٩] (١٣)

كان مفهوم اليوم الآخر المسيحي محورياً في الرسالة المبكرة للقرآن . واعتقد محمد (ﷺ) أن مكة صارت في أزمة لأن قريشاً لم تعد تشعر بمسئولية حسابها عن أفعالها . في الصحارى، قد يتكبر الكريم ويتغطرس بأنانيته، ولكنه يحس بالمسئولية عن جميع أفراد قبيلته . أما قريش، فقد كانت منشغلة في تكديس ثرواتها دون اعتبار للمآسى «الضعفاء» . بدت قريش وكأنها لا تدرك التبعات طويلة المفعول لأعمالها، ولمواجهة تلك الغفلة، علم القرآن الناس أن الله سوف يحاسبهم على أعمالهم، في يوم الدين، ذلك اليوم الحق<sup>(١٤)</sup> . سيضطر الناس في النهاية لمواجهة الحقائق التي حاولوا تجنبها، وستمر عليهم حياتهم برؤية عكسية رهيبة لوجودهم السابق، حيث يثبت لهم أن كل شىء اعتبروه في حياتهم راسخاً ومهماً ودائماً، إنما هو زائل . تبدد سور أوائل التنزيل المتقطعة، بأسلوب بالغ الدقة والجمال، تلك الأوهام:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)﴾ ، ﴿عَلِمْتَ نَفْسًا مَا أَحْضَرْتَ (١٤)﴾ [سورة التكرير: ١ - ٧ ، ١٤] (١٥) .

ستختفى الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وستصبح إناث الجمال والماشية بلا قيمة ، هي وما تحمله في بطونها من مواليد . ولن تكون هناك قيمة إلا لما عمل الإنسان :

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [سورة الزلزلة: ٦ - ٨] (١٦) .

الأفعال التي قد لا يكثر بها أو لها أحد في الدنيا ، ستثبت لها الأهمية الكبرى في الآخرة ، عمل صغير نابع من القسوة أو الأنانية ، أو على العكس ، عمل صغير نابع من الرحمة أو الكرم ، قد يهوى بفاعله في الآخرة ، أو يرفعه الدرجات العلى :

﴿فَك رُقِيَّةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٍ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾ [سورة البلد: ١٣ - ١٧] (١٧) .

من سيأتي بأعمال العدل (الصالحات) سيكون ماله الفردوس الأعلى ، أما من اتبع هواه وأنانيته في كثر الأموال على حساب حقوق الآخرين ، فسيكون ماله نار جهنم . ولكن لم يكن القرآن ينذر برؤية فجعة للجحيم ، وفقرات وصف الجحيم حزينة وليست غاضبة . فصلّ التراث الإسلامي كلاً من الجنة والجحيم ويوم الحساب ، ولكن بقي القرآن متحفظاً ، ولغته غامضة ومحيرة ، فيما يخص تلك الغيبيات . الأكثر أهمية ، أن القرآن يدفع مستمعيه لمواجهة «الحساب» في الحاضر أيضاً . فيوم «الحساب» ليس هو فقط الآتي في آخر الزمان ، بل هو أيضاً «لحظة الحقيقة» هنا والآن . فالتحقيق والمساءلة الحميمة واستخدام الفعل المضارع ، كل ذلك يدفع المستمعين للقرآن لمواجهة تبعات أعمالهم يوماً بيوم .

كيف يصبح حال الإنسان يوم الحساب عندما يدرك أنه أضاع حياته ، وأن الوقت أصبح متأخراً لتعويض ذلك؟

يذكر القرآن الناس بما يجب أن يفعلوه في حياتهم ليكسبوا، وليكسبوا آخرتهم، حين يقول الإنسان: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [سورة الفجر: ٢٤]. ويسأل القرآن بالجاح ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [سورة التكوير: ٢٦] (١٨).

البشر ليسوا سيئين بالفطرة، ولكنهم ينسون، ويريدون أن يتغافلوا عن أفكارهم الفطرية بدفعها في غياهب عقولهم، ولذلك فهم في حاجة دائمة للتذكير ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ (٢١) لست عليهم بمسيطر (٢٢) ﴿[الغاشية: ١٢ - ٢٢]﴾ (١٩). يحث الله محمداً ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾. لذلك يجب على الناس أن يزونا أفعالهم ويحاكموا أنفسهم، وأن يمارسوا فضيلة التقوى. يجب دائماً أن يجاهدوا الأنانية والطمع والتكبر. وبدلاً من أن يربعوا أنفسهم بالخوف من نار الجحيم، عليهم أن يتأملوا آيات الله ويتدبروا كرمه في حياتهم الطبيعية، ويتمثلوا إحسانه:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩) ﴿[البقرة: ٢٩]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ (٣٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣) ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤) ﴿[سورة إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣]﴾ (٢٠).

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَأِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَأِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَأِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿[الغاشية: ١٧ - ٢٠].

الكون كله حجاب لصانعه، تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، والأمطار التي تجلب الحياة، وبديع خلق البشر، كل ذلك آيات من الخالق. إذا تأمل البشر تلك الآيات باستمرار وبأساليب معرفية، لوعوا أن وراءها حقيقة تتجاوز إدراكهم، ولا تملؤوا بالعرفان لنعم تلك الحقيقة عليهم.

كانت قریش تزدرى الضعيف، واعتقدت أن الفقر والفشل ينمان عن نقص متأصل في النبالة، ولذلك لم تشعر قریش بأى واجب نحو الفقراء أو اليتامى أو الأراامل، ولكن إذا عرفوا حاجتهم لله في كل لحظة في حياتهم، لقدروا هاشتهم، ولروعتهم

عجائب الله وهذبت كبرياءهم، وتخلوا عن غطرسة استغنائهم بأنفسهم، وعن تكبرهم الراض للركوع لأى بشر، وحتى للمقدس. أراد محمد (ﷺ) من كل رجل وامرأة وطفل فى مكة أن ينمى داخله تواضعاً و عرفاناً بنعم الله عليه، وبذلك يتميز الإنسان.

لم يكن محمد (ﷺ) ليكتفى بالعمل ظاهرياً فى سبيل برنامج اجتماعى، فقد اعتقد أنه بدون تغير ما فى النفس، لن يكون أى برنامج سياسى بحث إلا امرأً سطحياً. من أجل ذلك، علّم مجموعة تابعيه الصغيرة العبادات التى تزرع فى أنفسهم ذلك التغيير. أولاً: عليهم أن يجتمعوا فى الصلاة، ويذكرهم السجود فى كل صلاة بوضعهم الطبيعى أمام إلههم. وفى دنياهم، تقطع الصلاة أعمالهم المعتادة، وتساعدهم على تذكر أن الله هو مطلبهم الأهم. كان من الصعب على الرجال والنساء الذين تربوا على تعاليم المروءة أن ينطحوا على الأرض، كالعبيد، وانزعج كثير من القرشيين من هذا الوضع المذل. ولكن تلك الحركة الجسدية المكررة فى الصلاة ترمز للتسليم التام لله. إنها علمت أجسادهم بمستوى أعمق من العقلانى أن تنحى جانباً الدوافع الشخصية للتفاخر والتبختر بغطرسة. أصبح المسلم، رجل أو امرأة، هو من يسجد بإذعان، ويفخر بأنه عبد الله.

ثانياً: كان مطلوب من كل من أعضاء الأمة الإسلامية أن يعطى جزءاً من دخله صدقة للفقراء. طهرت هذه الزكاة الكرم البدوى التقليدى من الغرور والمظهيرية، فبدلاً من عرض سخائهم الزائد، أصبح عليهم أن يقدموا إسهاماً منتظماً، غير لافت للنظر ولا للشهرة لفقراء العشيرة. لم يعد الكريم هو من قد ينفق ثروته الكاملة فى ليلة واحدة، وصار الكريم هو من لا يكل من ممارسة أعمال الخير والعدالة. وكان الإيمان الجديد يسمى فى هذه المرحلة «تزكية الأنفس»<sup>(٢١)</sup> بالعطف على الفقير والمحتاج، وتحرير العبيد، وممارسة الأعمال الطيبة يومياً، بل فى كل ساعة. تعلم المسلمون فضيلة التكافل، وتشربوا تدريجياً روح رعاية الآخر امتثالاً للكرم ورعاية الله لهم، وطهروا قلوبهم من الكبر والأنانية، وزكوها بالنقاء والصفاء.

حافظ محمد (ﷺ) على سرية الدعوة لمدة ثلاث سنوات، فكان يدعو فقط أشخاصاً مختارين بعناية، ولكن أمره الله فى عام (٧ ق.هـ / ٦١٥ م) بما أوعبه: أن

يبلغ رسالته لجميع عشيرة بنى هاشم، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) ﴿سورة الشعراء: ٢١٤﴾ (٢٢).

أخبر محمد (ﷺ) علياً بأن المهمة أكبر من طاقته، ولكنه تحملها، ودعا أربعين من كبار عشيرته إلى وجبة متواضعة، كان ذلك في حد ذاته جزءاً من الرسالة، فليس بعد اليوم إسراف مظهري في الضيافة؛ لأن الترف ليس فقط إضاعة للمال، بل إنكاراً للجميل ونفياً للعرفان، وتبذيراً غير شاكر لنعم الله:

﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ الْمُبْتَدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) ﴿سورة الإسراء: ٢٦، ٢٧﴾ (٢٣).

وعندما حضر كبار العشيرة، احتاروا عندما قدم لهم على ساقاً من الضأن وكوباً من اللبن. وروى على القصة بعد ذلك بما يشبه ما فعله عيسى (ﷺ) عندما أطعم الألوף بضعة أرغفة، فقد أكل بنو هاشم حتى امتلأوا بذلك الطعام البسيط. وبعد الانتهاء من الطعام، وقف محمد (ﷺ) ليخبرهم عن الوحي وتعاليم الإسلام، ولكن قاطعه أبو لهب - الأخ غير الشقيق لأبي طالب - بوقاحة قائلاً للجميع: لقد سحركم محمد. وانفض الاجتماع بطريقة غير سوية.

ودعاهم محمد (ﷺ) في اليوم التالي، واستطاع أن يعرض عليهم ما أراده في اليوم السابق، ثم ختم حديثه لهم قائلاً: يا أبناء عبد المطلب، لا أعرف أحداً من العرب جاء لقومه برسالة أنبل مما جئتم به. لقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فمن منكم سوف يؤازرنى في تبليغ الرسالة، كأخى، ومساعدى، وخليفتى؟.

صمت بنو هاشم، ونظر بعضهم إلى بعض في هرج، فهم ما زالوا يتذكرون محمداً الصغير الذى يعيش على مساعدات أقربائه. كيف يجروا على أن يدعى أنه نبي الله؟. حتى ابن عمه جعفر، وابنه بالتبني زيد لم يجروا على الكلام، وأخيراً لم يستطع على الفتى المراهق الطائش ذو الثلاثة عشر عاماً أن يتحمل أكثر من ذلك، فصرخ قائلاً: يا نبي الله، سوف أكون مساعدك في هذه الرسالة! فوضع محمد (ﷺ) يده برفق على عنق الفتى قائلاً: «هذا هو أخى، ومساعدى وخليفتى بينكم»، ثم قال: «اسمعوا له»، فانفجر الكبار ضاحكين: لقد أمرك أن تستمع لابنك وتطيعه! صرخوا في وجه أبى طالب وهم يخرجون من المنزل.

قال الطبري: قال رسول الله (ﷺ): «يا بني عبد المطلب، والله ما أعلم شأباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتمكم به، إني جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟». قال على: فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت - وإنى لأحدثهم سنأ وأرمصهم عيناً، وأخمشهم ساقاً - أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي فقال: «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع. [تاريخ الطبرى: ٢/٢١٧] [٢٤].

لم يشن ذلك الإذلال محمداً (ﷺ) عن الاستمرار فى الجهر بدعوته فى المدينة، ولكن بنجاح شبه معدوم. لم ينتقد أحد دعوته الاجتماعية، فهم يعرفون أن المروءة تقتضى أن يشركوا فى أموالهم فقراء عشائرتهم، فالأنانية والطمع أمر، ولكن الدفاع عنهما أمر مختلف. اعترض معظم الناس على مسألة يوم الحساب، وقالوا ببساطة ما هذا إلا خرافة، مثل حكايات عجائز النساء. كيف تحيا الأجساد التى تحللت وأصبحت عظاماً؟ وهل محمد (ﷺ) جاد فى قوله إن آباءهم المبجلين سوف يقومون من قبورهم «ليقفوا للحساب أمام رب العالمين»؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَتَدَّأ مَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَتُنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)﴾ [سورة والصافات: ١٢ - ١٩] [٢٥].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)﴾ [سورة المطففين: ٤، ٥]،

يجيب القرآن بأنه لا يوجد من يستطيع إثبات أنه لن تكون هناك حياة بعد الموت، وإذا كان الله قد خلق الإنسان من نطفة، فيمكنه بسهولة إحياء جسد ميت:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ

تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ  
 وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ  
 الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [سورة يس : ٧٧ - ٨٣] ، ﴿قُلْ  
 اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ [سورة الجاثية : ٢٦] (٢٦) .

ويشير القرآن إلى أن هؤلاء الذين يسخرون من البعث إنما هم من لا يريدون التوقف  
 عن قمعهم للآخرين، وعن تصرفاتهم الأنانية. وعندما يواجههم القرآن بالإصرار على  
 سؤالهم عن القيمة النهائية أو الجوهرية لحياتهم، يتهربون بالأفكار والاستخفاف من  
 السؤال :

﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٧﴾ وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ  
 مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٧﴾ [سورة المطففين : ١٠ - ١٢] (٢٧) .

ولكن برغم جحد قريش لدعوة محمد (ﷺ) ، فمعظمهم اقتنع بترك محمد  
 (ﷺ) في حاله، فقد كانوا رجال أعمال، شهيتهم ضعيفة للجدال الفكري، وعرفوا  
 أن صراعاً داخلياً خطيراً سوف يضر تجارتهم. ورأوا أنه، على أي حال من الأحوال،  
 تلك العصاة الصغيرة من حفنة العبيد، والشباب الغاضب، والتجار الفاشلين، لا  
 تشكل تهديداً حقيقياً، وأن مصير حركتهم المحتوم هو التلاشي .

كان محمد (ﷺ) نفسه حريصاً على تفادي أي صدع في قريش، ولم تكن لديه  
 أي رغبة في الإضرار بمكة «أم القرى» . وعرف أن بعضاً من قريش توجس من أنه يريد  
 أن يصبح ملكاً عليهم، وكانت الملكية فكرة بغیضة لدى العرب، نظروا إليها بعين  
 الشك. ولكن لم يكن لدى محمد (ﷺ) طموحات سياسية، وأخبره الله في القرآن  
 بحسم أنه فقط نذير، يحذر قريشاً، ويخاطبهم بتواضع، ولا يستفزهم، ولا يهاجم  
 آلهتهم، وعليه ألا يسعى للرئاسة عليهم، وذلك ما قد فعله الأنبياء العظام من قبل :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ  
 أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ [سورة الأنعام :  
 ١٠٨] (٢٨) .

وأن يكون خيرًا، ومؤثرًا للغير، وألا يعتد برأيه، وألا يتتبع عورات الآخرين، وأن يضع الصالح العام للأمة في المقدمة. فالنبي أولاً، وقبل كل شيء، هو «من أسلم وجهه لله»:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ [سورة يونس: ٧٢] (٢٩).

لم يركز محمد (ﷺ) في مرحلته الأولى على مضمون التوحيد في دعوته لتجنب الخلاف مع قريش. مثل الأحناف، اعتقد محمد (ﷺ) بوحدانية الله، ولكنه لم يشجب في البداية عبادة الأصنام حول الكعبة، أو الغرائق الثلاثة. ومثل معظم الحكماء المتدينين العظام، لم يكن ذا اهتمام بالغ بالأراء العقائدية (٣٠)، فتأملات ما وراء الطبيعة [علم الكلام أو الفلسفة] تنزع إلى خلق البلبلة، إن لم يكن الشجار والانقسام بين الناس. كانت «ممارسة أعمال الخير والعدالة» أكثر أهمية من الإصرار على تحديد القناعات العقائدية، الأمر الذي قد يخرج الكثير ممن يريد محمد (ﷺ) كسبهم في دعوته. ولكن كان التوتر يتفاقم، ففي عام (٦ ق. هـ / ٦١٦ م) هاجم بعض القرشيين المسلمين أثناء صلاتهم في أحد الوديان الصغيرة المنعزلة خارج مكة. صدم الحدث الجميع في مكة، وحاول الجانبان باستماتة التعايش بتسوية ما. قد يكون هذا ما قاد إلى «الآيات الشيطانية» ذات السمعة السيئة (٣١). لم يرو تلك الحادثة سوى اثنين من مؤرخي السيرة النبوية الأوائل، ويرى أكثر العلماء أنها مشكوك فيها، برغم أنه يصعب أن نجد سبباً لأن يضع أحد مثل تلك الحادثة. أكد كل من ابن سعد والطبري على رغبة محمد (ﷺ) على أن يسود الوفاق مكة. قال ابن سعد إنه بسبب رغبة محمد (ﷺ) في ألا ينشق صدع بينه وبين قريش، جلس خالياً فتمنى، فقال: «ليت لا ينزل على شيء يصد هم عنى».

قال ابن سعد: «رأى رسول الله (ﷺ) من قومه كفا عنه، فجلس خالياً فتمنى فقال: ليت لا ينزل على شيء ينفرهم عنى». [الطبقات: ١ / ١٧٤] (٣٢).

وقال الطبري: «لما رأى رسول الله (ﷺ) تولى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباحدهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم، أن يلين له

بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم ، حتى حدث بذلك نفسه ، وتمناه وأحبه .  
[تاريخ الطبري ، ط دار المعارف : ٢ / ٣٣٨] (٣٣) .

استأنف الطبري روايته : وفي يوم من الأيام كان محمد (ﷺ) يجلس بجوار الكعبة مع بعض الكبار ، يرتل سورة جديدة [سورة النجم] ، أراد الله فيها أن يطمئن نقاد محمد (ﷺ) : لم ينو محمد (ﷺ) أن يسبب كل هذا الإشكال ، وأصر الوحي أن محمداً لم يخدع ، ولم يمسه جنى ، وإنما جاءت رؤيته حقيقة من الوحي المقدس ، وهو ببساطة يخبر قومه بما رأى وسمع .

﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) ﴿ (٣٤) .

ولكن ذهل محمد (ﷺ) عندما وجد نفسه يتلفظ ببعض آيات عن الغرائق الثلاثة «بنات الله» : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٦) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ وهنا وقفت قريش تصغى بانتباه ، فقد أحببت قريش الآلهة التي تتوسط بينها وبين الله ، فأكمل محمد (ﷺ) تلك الغرائق العلاء وإن شفاعتهن لترتجى (\*).

يزعم الطبري أن الشيطان ألقى بتلك الكلمات على لسان محمد (ﷺ) . هذه فكرة إنذارية شديدة للمسيحيين الذين يعتبرون الشيطان كائنًا ذا شر هائل . يعرف القرآن ، على وجه التأكيد ، قصة الملاك الخاطيء الذي تحدى الله ، ويسميه إبليس (من الكلمة الإغريقية diabolos ، أى شيطان) (\*\*). ولكن الشيطان الذي ألقى بتلك الكلمات التي تطرى آلهة قريش على لسان محمد (ﷺ) كان قليل الخطورة . الشياطين هم ببساطة نوع من الجن ، يغوون البشر بمخاطبة طموحاتهم السطحية والفارغة لينحرفوا عن الصراط المستقيم . الشياطين مثل كل الجن ، موجودة في كل مكان ، ضارة وخطيرة ، لكن ليس على مستوى إبليس . وكان محمد (ﷺ) يتطلع إلى سلام مع قريش ، وكان يعرف مدى تعلقهم بالهتهم [الغرائق] ، وربما كان قد فكر في أنه إذا استطاع أن يدمج الغرائق في دينه ، فقد ينظرون بعين أكثر عطفًا على رسالته . وعندما قرأ تلك الآيات الشاذة ، كانت رغبته الداخلية تتكلم ، وليس كلام الله ، وتبين أن تصديق شفاعة الغرائق كان خطأ . وعزا محمد (ﷺ) ذلك ، مثل كل العرب ، إلى الشيطان .

(\*) فند علماء الحديث تلك الرواية الموضوعة ، ومع هذا لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق عن سيرة النبي ﷺ عن ذكرها ، وانظر هامش صفحة ٦٥ ماذا يقول القرآن عن محمد ﷺ لو أضاف شيئاً من عنده .  
(\*\*) فعل أبلس معناه : سكت لحيرة أو انقطاع حجة ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ [سورة الروم : ١٢] .

لم يعن محمد (ﷺ) أن «الغرائيق الثلاثة» ترقى إلى مستوى الله، ولكنها كانت، ببساطة، وسيطات، مثل الملائكة التي صدقت السورة على وساطتها:

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سورة النجم: ٢٦] (٣٥).

دائماً ما رأى اليهود والمسيحيون مثل تلك الوساطة متوافقة مع توحيدهم. بدت الآيات الجديدة إيماءات ملائمة، ونزل تأثيرها على قريش كالصاعقة، وما إن تلى محمد (ﷺ) ترتيله حتى سجد (\*)، ولعجبه، فقد سجد كبار قريش، واضعين جباههم على الأرض بتواضع.

انتشر الخبر في مكة انتشار النار في الهشيم: «لقد تكلم عن آلهتنا بطريقة رائعة! لقد زعم أن شفاعتهم ترضى».

قال الطبري: «وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم، ويقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو: «أنها الغرائيق العلاء، وإن شفاعتهم ترضى» [تاريخ الطبري: ٢ / ٣٣٨] (٣٦).

قال ابن سعد: «قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك. فكبر ذلك على رسول الله» [الطبقات: ١ / ١٧٠] (٣٧).

ولكن احتار محمد (ﷺ)، فهل قريش جادة في تعديل طريقة حياتها، فتشرك الفقراء في ثرواتها، وترضى بأن يصبح القرشيون «عبداً» لله؟. لم يبد ذلك محتملاً. لقد كان أيضاً منزعجاً من كلمات كبار قريش المهللة، فهو بكل تأكيد لم يقصد أن يشير لأن الغرائيق «شركاء لله». وبينما كان الجميع يحتفلون، ذهب محمد (ﷺ) إلى منزله ليعتزل الناس ويتدبر. في تلك الليلة، جاء جبريل: «ماذا فعلت يا محمد؟ لقد رتلت على هؤلاء الناس ما لم أوح لك به، وقلت ما لم يقله الله لك!»:

قال الطبري: «وأتى جبريل رسول الله (ﷺ) فقال يا محمد، ماذا صنعت! لقد تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يقل لك. فحزن

(\*) تنتهي سورة النجم بالآية الآتية: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٦).

رسول الله (ﷺ) عند ذلك حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً كبيراً، فأنزل الله عز وجل - وكان به رحيمًا - يعزبه ويخفف عليه الأمر، ويخبره أنه لم يك قبله نبي ولا رسول تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب، إلا والشيطان قد ألقى في أميته، كما ألقى على لسانه (ﷺ). فنسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، أي فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل. فأنزل الله - عز وجل - من سورة الحج الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٢) [تاريخ الطبري: ٣٣٩/٢ (٣٨)].

شوهت رغبة محمد (ﷺ) في حل وسط الرسالة الإلهية، وذهبت نفس محمد (ﷺ) من الألم، ولكن سرعان ما عزاه الله بتزليل جديد. كل الأنبياء السابقين زلوا في أخطاء «شيطانية» مماثلة. كان هناك دائماً صراع لجعل التنزيل جديراً بالإقناع، وما كان أسهل الوقوع في خلط فيض الإلهام مع الأفكار السطحية للموحي إليهم (\*). واستمر التنزيل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٢) [سورة الحج: ٥٢].

وهنا تأسس مفهوم مهم. يمكن لله أن يغير وحيه في وقت التنزيل لنبي معين، حيث كان الوحي متتابعاً: ويمكننا أن نقول بأن محمداً (ﷺ) رأى في بعض الأحيان ضمنيات جديدة في رسالته، توافق بعضاً من رواه المبكرة.

كان على محمد (ﷺ) الآن، أن يذهب إلى قريش بآيات جديدة تُعدّل تلك «الشيطانية». سألهم الله مرة أخرى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا

(\*) جاء في سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾.

مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾  
 [سورة النجم: ١٩ - ٢٣] (٤٠).

لقد كان ذلك بمثابة صفة على وجه قريش! لم تكتف بنفى شراكة الغرائق في الألوهية، بل أهانت السلف المبجل. لماذا يستحيل على القرآن ضم تلك الغرائق إلى صف الملائكة؟ لماذا يحطم القرآن فرصة السلام مع قريش بذلك الرفض الحاسم لإخلاص قريش - الذي يبدو غير ضار - لآلهتها؟.

بعد أربع سنوات من الإسلام، لم يعد المسلمون يستطيعون أخذ ديانة قريش التقليدية بجدية. وما زال الله في نظر معظم القرشيين إلهاً بعيداً عالياً، لا يتدخل في حياتهم اليومية، أما المسلمون منهم فلم يروا ذلك، فقد جعل جمال القرآن الله حقيقة أسرة نابضة بالحياة، فعندما يسمعون القرآن:

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزمر: ٢٣] (٤١).

وكلمة الله هي حقيقة نافذة يتصدع لها الكون من الخشوع ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٢١] (٤٢). أصبح الله الآن مختلفاً تماماً عن آلهة قريش، وأخطأت «الآيات الشيطانية» عندما اقترحت أن الإسلام يماثل الديانة المكية القديمة. إنه لأمر جدير بالسخرية أن يتصور أحد أن الأوثان الحجرية للغرائق قد تؤثر على إله الإسلام.

بدأ القرآن في توضيح الفارق، فالآلهة الأخرى عاجزة وغير فعالة مثل رؤساء القبائل الضعفاء، فهي لا تستطيع توفير الطعام لعبدتها، كما يفعل الله حين يرزق كل من على الأرض، وهي لا تستطيع التشفع لعبدتها يوم الحساب، فالله ليس كمثل شيء:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾،  
 [سورة يونس: ١٨]، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَمُونَ ﴿١٧﴾ [سورة العنكبوت: ١٧]، ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الزمر: ٤٣] (٤٣).

بعد التبرؤ من «الآيات الشيطانية» بمدة قصيرة، نزلت سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (١) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤٤)﴾.

أصبح التوحيد هو الركيزة الأساسية في الإسلام الروحي. لم يكن التوحيد مجرد تأكيد غيبي لما فوق الطبيعة عن وحدانية المقدس، وإنما هو - مثل كل تعاليم القرآن - دعوة للعمل. ولأنه لا يمكن مقارنة الله، فالمسلمون ليسوا مطالبين فقط بعدم تبجيل الأوثان، بل عليهم أيضاً أن يضمنوا ألا تنحرف بهم أى حقائق أخرى عن الله، أما الثروة، والبلد، والعائلة، والرفاهية المادية، حتى المشاليات النبيلة مثل الحب والوطنية، فتحتل المركز الثانى؛ لأن التوحيد يتطلب من المسلمين أن تتكامل حياتهم. وفي كفاح المسلم لكى يصبح الله أهم ما فى حياته، سوف تنكشف للنفس السوية وحدانية الله. ربما فى تلك الفترة كان على المسلمين الجدد النطق بالشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

لم تكن قريش لتصدم بالتوحيد فى حد ذاته، فهو لم يكن فكرة جديدة بالنسبة لهم. فلقد وجدوا منذ زمن طويل أن اليهودية والمسيحية تتوافقان مع تقاليدهم، ولم يتزعجوا، بشكل خاص، من محاولة الحنيفيين خلق توحيد عربى أصيل. ولكن محمداً (ﷺ) كان يفعل شيئاً مختلفاً، فقد بقى معظم الحنيفيين على احترامهم العميق للحرم، ولم يبذلوا أى محاولات لإصلاح النظام الاجتماعى. ولكن مهاجمة محمد (ﷺ) لأصنام الكعبة، عنت أن الحرم الذى يقوم عليه الاقتصاد المكى عديم القيمة. فقبائل البدو لم تكن تأتى للحج إلا من أجل عبادة أصنامها، تلك العبادة التى أدانها القرآن إدانة مطلقة (٤٥). وكانت قريش تتوسل إلى «غرانيقها العلى» وهى تطوف بالكعبة، وأصبح ذلك الآن، وفقاً للقرآن، ضلالاً وخداعاً للنفس.

كانت واحة الطائف التى تعبد اللات، تمد مكة بالطعام، وكان لكثير من أثرياء مكة بيوت صيفية فى الطائف، فكيف تبقى الطائف على صداقتها مع مكة إذا تغاضت الأخيرة عن سب ألتهتها؟.

أصبح محمد (ﷺ) بين عشية وضحاها «العدو». وقد أرسل زعماء قريش وفداً إلى أبي طالب يسألونه التبرؤ من ابن أخيه، حيث لم يكن أحد يستطيع البقاء حياً في الجزيرة العربية بدون حام يجيره، ومن تبرأ منه قبيلته يصبح مباح الدم، دون خوف من انتقام أحد. ولم يكن أبو طالب مسلماً، ولكنه كان يحب محمداً (ﷺ)، وأصبح في موقف بالغ الصعوبة. أراد أبو طالب التوفيق، ولكن جاء إنذار نهائي من قريش «لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه تقاليدنا وإهانة آلهتنا»، ثم هددوه قائلين: «إن لم تخلصنا منه، سوف نحاربكم حتى نهلك أو تهلكوا». نادى أبو طالب محمداً (ﷺ) وتوسل إليه أن يتوقف عن وعظه المدمر: «أبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن محمد الله (ﷺ) أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، والقيام معه، فقال: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته». ثم بكى، فلما ولى، ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك أبداً».

قال ابن إسحاق: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا: كذا وكذا، للذي قالوا له، وأذوني قبل، فأبق على وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، واكفف عن قومك ما يكرهون من قولك هذا الذي فرق بينا وبينهم، فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله (ﷺ): «يا عم! لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه»، ثم استعبر رسول الله (ﷺ) فبكى، فلما ولى قال له - حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله (ﷺ): أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا نسلمك بشيء أبداً. [السيرة النبوية: ص ٢٠١] (٤٦).

بقي محمد (ﷺ) سالماً، طالما أسبغ عليه أبو طالب حمايته، فلا يجروا أحد على مسه. كان أبو طالب شاعراً موهوباً، عرف كيف ينظم أبياتاً عاطفية في تلك العشائر التي تخلت عن بنى هاشم في وقت الحاجة. استجاب بنو عبد المطلب بإعلان تضامنهم، ولكن شاب ذلك انشقاق أبي لهب، الأخ غير الشقيق لأبي طالب، الذي عارض محمداً (ﷺ) منذ بدء الأمر، وكان قد خطب ابنتي محمد (ﷺ) رقية وأم كلثوم

إلى ابنه، فأمر ابنه بفسخ العلاقة . وهنا تقدم الشاب المسلم الجميل ، والشرى ذو الحسب والنسب ، عثمان بن عفان ليخطب رقية ، إحدى أجمل فتيات مكة .

تفاقت كراهية كبار قريش لمحمد (ﷺ) ، خاصة أولئك الذين فقدوا أعضاء من عائلاتهم دخلوا الإسلام ، وكانوا يتباهون بأنهم يعطونه ظهورهم عندما يسمعونونه يتكلم عن «الإله الواحد» ، فى الوقت الذى يتهجون عند سماع سيرة الآلهة الأخرى :

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الإسراء : ٤٦] ، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الزمر : ٤٥] (٤٧) .

لقد طالبوا الجميع بأن يتمسكوا بما ورثوه من تقاليد آبائهم ، فهذا هو الأمر السوى الوحيد ، وكل ما يقوله محمد (ﷺ) عن الوحي ما هو إلا خيال ! لقد ابتدع محمد (ﷺ) كل ذلك ، وإن نزل وحى من السماء ، فلماذا ينزل على محمد (ﷺ) بالذات من دون كبراء وأثرياء قريش ؟ .

﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [سورة ص : ٦] (٤٨) .

وقالوا عن محمد (ﷺ) تارة إنه مجنون ، وتارة إن جنًا قد مسه ، وما هو إلا مشعوذ يخدع شباب مكة الصغير ، فيضلهم عن دين آبائهم بسحره :

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة ص : ٥] (٤٩) .

وعندما كان يطالبه الناس بتصديق رسالته بأن يأتى بمعجزة - مثلما فعل موسى وعيسى - كان يعترف لهم بأنه مجرد بشر مثلهم :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة فصلت : ٦] (٥٠) .

كان من بين من اعترضوا على محمد (ﷺ) بعض من أكبر زعماء مكة ، فى مقدمتهم أبو الحكم بن هشام ، وهو رجل طموح سريع الغضب ، أزعجه الإسلام بشدة بالغة ، وأمىة بن خلف البدين ، وأبو سفيان الشديد الذكاء - والذى كان صديقًا شخصيًا

لمحمد (ﷺ) - مع حميه عتبة بن ربيعة، وأخيه. وكان محمد (ﷺ) يطمع في أن يكسب سهيل بن عمرو، كبير عشيرة عامر، والذي كان يعتزل - مثل محمد (ﷺ) - في جبل حراء. كذلك أسفر بعض رجال مكة المتميزين عن عداثهم القاسى للإسلام، منهم المحاربان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وكان أكثرهم عداً عمر بن الخطاب، ابن أخت أبي الحكم، وأكثرهم إخلاصاً لدين الآباء. وبينما كان كبار مكة يتحينون بحذر الفرصة ضد محمد (ﷺ)، كان عمر مستعداً لأساليب أكثر تطرفاً.

أصبح محمد (ﷺ) فاقد الأمل في تغيير المؤسسة المكية، وأدرك أن عليه التركيز على الفقراء الأقل إخلاصاً للنظام المكي السائد، والذين كانوا يتطلعون إلى رسالة. مثل ذلك نقطة تحول هامة، سجلها القرآن بأسلوب حاد.

كان محمد (ﷺ) منشغلاً تماماً في محاولة إقناع أحد كبار مكة، عندما جاءه ذات يوم أعمى يسأله عن الإسلام، فأعرض عنه محمد (ﷺ) عابساً ليطم حديثه مع الآخر، فنزل القرآن يؤنب محمداً (ﷺ) في سورة عبس:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَا مَنِ اسْتَعْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ [سورة عبس: ١ - ١٠] (٥١).

أنب القرآن محمداً (ﷺ) بشدة؛ لأنه على النبي أن يسعى وراء كل أعضاء المجتمع بنفس درجة الاهتمام والاحترام، فالقرآن نزل للجميع على السواء، وكان على محمد (ﷺ) ألا ينزل في عيوب مروءة قريش، فيعبس ويتولى، ويحجب نعمة الله عليه عن الأعمى.

عادة ما تتم ترجمة كلمة كافر إلى «عديم الاعتقاد»، ولكن تلك ترجمة مضللة (٥٢). لم يكن محمد (ﷺ) في صراع مع كل معتقدات أبي الحكم وأبي سفيان، وفي الحقيقة، كان الكثير من معتقداتهم صحيحة، منها على سبيل المثال، أنهما كانا يعتقدان - بلا شك - أن الله هو خالق العالم، وهو رب الكعبة:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَانَّى يُفَكَّرُونَ (٦١)﴾ [سورة العنكبوت: ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾  
 [سورة العنكبوت: ٦٣] (٥٣).

المشكلة أنهم لم يكونوا يترجمون معتقداتهم إلى أفعال . لقد كانوا يجحدون المعاني الحقيقية لآيات الله الخيرية في خلقه، والتي تطلب من البشر تقليدها في كل تعاملاتهم . فعلى البشر بدلاً من الاستخفاف بالضعفاء وظلمهم ، أن يخفضوا لهم جناح الرحمة والإحسان :

﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة النحل: ٧١] ، ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥] (٥٤) .

كلمة «كافر» مشتقة من «كفر» والتي تعنى أن المرء رفض بفظاظة ما قدم له بكل كرم وطيبة ، فعندما كشف الله لأهل مكة عن ذاته ، رفضه بعضهم بإزدراء ووقاحة\* . لا يوبخ القرآن الكافرين على اعتقادهم ، بقدر ما يوبخهم على تكبرهم (٥٥) . كانوا متغطرسين ومتكبرين ، تصوروا أنهم من طبقة أعلى من فقراء ومساكين مكة الذين يستحقون الاحتقار . وبدلاً من إدراك اعتمادهم النهائي على الله ، ظلوا في اعتبار أنفسهم مستغنين عنه ، ورفضوا الانحناء له ، أو لأى شخص آخر . يشعر الكافرون بتضخم شخصياتهم ، ويتنفخون من الزهو بذواتهم ، ويعاملون الآخرين باستعلاء ، وسرعان ما يغضبون بعنف أحمق عندما يظنون أنهم طعنوا في شرفهم ؛ لأن لديهم قناعة كبيرة بأن طريقة حياتهم أفضل من أى قوم آخرين ، ويسخطهم أى نقد لتقاليدهم :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحَ مُرْسَلٍ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ٧٥ ، ٧٦] ، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنزَمْنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٤٥ - ٤٧] ، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتغُوا إِلَٰهَهُ الْحَقِيقَةَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الرَّسُولِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَنِ الْكَافِرِينَ كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٠] .

(\* كفر تعنى فى العربية غطى ، وتعنى فى المصطلح القرآنى من عرف حقيقة الدين ثم غطاها بجحود وإنكار .

عَزَمَ الْأُمُورَ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) ﴿ [سورة لقمان: ١٧، ١٨]، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [سورة ص: ٧١-٧٥]. ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)﴾ [سورة الزمر: ٥٩] (٥٦).

وكانوا ينخرون بخياشيمهم عند تلاوة محمد (ﷺ) للقرآن، ليلبلبوا الناس، معتقدين أن تلك حيلة لإظهار ذكائهم في صرف الناس عن محمد (ﷺ):

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ [سورة الحجر: ٩٤-٩٦]، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦)﴾ [سورة الكهف: ١٠٦]، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [سورة الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)﴾ [سورة الحج: ٨، ٩]، ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)﴾ [سورة غافر: ٤، ٥] (٥٧).

ولم يكن يسعهم أن يفكروا في أي جديد يخالف موارثهم؛ لأن قلوبهم كانت غلفاً، مختوماً عليها ومغلقة، وصدأة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [سورة البقرة: ٦، ٧]، ﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢) بَشِيرًا وَنَذِيرًا

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ [سورة فصلت: ٣-٥] ،  
﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين: ١٤] (٥٨).

كانت الجاهلية داء الكافرين العضال . يستخدم المسلمون ذلك المصطلح بمعنى الفترة السابقة للإسلام في الجزيرة العربية ، ويطلقون عليها - بطريقة تقليدية - فترة الجاهلية . ومع أن جذر الكلمة «جهل» بمعنى عدم العلم ، فمعناها الرئيسي هو العنف المزمع في الاعتداء على الآخرين ، والانتقام منهم نتيجة الغضب السريع والحساسية الزائدة للشرف والمكانة (٥٩)\* . كان أهل الجاهلية أكثر تكبراً من أن يستسلموا ، ويسلموا أنفسهم للشرع الجديد : الإسلام . لماذا يجب على الكريم أن يهذب أسلوبه ، ويتصرف مثل العبيد ، فيصلى وأنفه في الأرض ، ويعامل الطبقة الدنيا كأنداد؟ . أطلق المسلمون على أبي الحكم ، عدوهم الرئيسي «أبا جهل» ، ليس لأنه جهل الإسلام - فقد فهمه جيداً - ولكن لأنه حاربه بغطرسة وبشراسة وبانفعال أعمى وطائش .

ولكن روح القبيلة كانت قد تملك العرب ، حتى أنه بعد دخولهم الإسلام ، ظلت خطراً كامناً تحين أعراضه الظهور في التاريخ الإسلامي .

حث القرآن المسلمين على أن يتحلوا بالحلم ، وهو أيضاً فضيلة عربية تقليدية ، بدلاً من الجاهلية ، فيتصرف المسلمون بصبر وأناة ورحمة (٦٠) . يجدر بهم السيطرة على غضبهم وأن يحافظوا على هدوتهم ورسالتهم في أشد الظروف صعوبة بدلاً من أن يسارعوا بالانتقام والاعتداء ، ويتركوا ذلك لله (٦١) . والحلم يدعو إلى الأعمال الإيجابية ، مثل سد حاجة الضعيف وقليل الحظ ، وتحرير العبيد ، وللتناصح بأعمال الخير والرحمة ، وإيثار الغير من المعوزين . يجب على المسلمين دائماً التصرف برفق وطيبة ، فهم مسالمون :

﴿فَكَ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْئَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٣-١٧] (٦٢) .

(\*) كذلك تعني جهل : ظلم ، وتعدي ، وعكس معنى حلم .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾  
 [٦٣] ﴿سورة الفرقان: ٦٣﴾.

بعد قضية «الآيات الشيطانية»، أصبح الصراع مع الكافرين خطيراً، حيث داوم أبو جهل على الاعتداء اللفظي على المسلمين وتشويه سمعتهم بالأكاذيب والإشاعات الشريرة، وبتهديد التجار بإفشال أعمالهم، وببساطة، ضرب المسلمين الضعفاء. لم يستطع الكافرون إيذاء المسلمين الذين لديهم من يحميهم، ولكن هاجموا العبيد، وأولئك الذين بدون حماية قبلية كافية. وقد اعتاد أمية، كبير جمع، تعذيب بلال العبد الحبشى، بأن يجعله يفترش أرض الصحراء القاحلة تحت الشمس الحارقة، ويضع فوق صدره صخرة كبيرة حتى يكفر بمحمد (ﷺ) وإلهه. اشترى أبو بكر بلالاً من أمية، وأعتقه، كذلك اشترى أمة كان عمر بن الخطاب يجلدها بالسوط. وحبست بعض العائلات شبابها الذى أسلم، بل وأجاعته حتى يرجع عن الإسلام. لقد أصبح الوضع خطيراً بالنسبة للمسلمين فى مكة، حتى أن محمداً (ﷺ) أرسل ضعافهم إلى الحبشة، حيث قبلهم ملكها المسيحي. كذلك أصبح من الواضح، بقدر ما هو من المؤلم، أنه لا مستقبل للإسلام فى مكة.

لابد وأنه كان أمراً بالغ الصعوبة على المسلمين، الذين نشؤوا بروح الجاهلية، أن يمارسوا الحلم، ويديروا خدوم الآخر، حتى محمد (ﷺ) كان يجاهد فى بعض الأحيان ليتمالك نفسه. تعبير إحدى سور القرآن الأوّل عن غضبه من عمه أبى لهب وزوجته، التى اعتادت نثر الأشواك أمام منزله:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [سورة  
 المسد: ١-٥] (٦٤).

وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها القرآن أحد أعداء محمد (ﷺ) بالاسم.

كان محمد (ﷺ) ذات مرة يطوف حول الكعبة، فسمع بعض كبار قريش يسخرون منه بإزدراء شديد. فاستطاع أن يكبح جماح نفسه لفترة، حتى أكمل الطواف الثالث، فامتقع لون وجهه، وواجه الكافرين، وبدلاً من أن يرجو لهم السلام كما يأمر

القرآن(\*)، قال متجهماً: «هل تسمعونني يا قريش، والذي نفسى بيده، لقد جثتكم بالذبح!» لفظ كلماته الأخيرة بنبرة تهديدية جعلت زعماء قريش يصمتون. ولكن في اليوم التالي، استعادوا أعصابهم، فأحاطوا بمحمد (ﷺ) عند وصوله الحرم وأمسكوا بخناقه يجذبونه من ملابسه، ولم يرد عليهم محمد (ﷺ) بعنف، بل تركهم في غلظتهم حتى تدخل أبو بكر قائلاً وهويكي: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!».

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: طلع رسول الله (ﷺ) فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله (ﷺ) فمضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسى بيده لقد جثتكم بالذبح»، قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله (ﷺ) حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله (ﷺ) فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون أنت الذي يقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله (ﷺ): نعم، أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردايه، قال: فقام أبو بكر الصديق دونه وهويكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه،

(\*) جاء في إنجيل لوقا عن المسيح قوله: «جثت لألقى على الأرض ناراً، فلکم أود أن تكون قد اشتعلت. ولكن لي معمودية على أن أتعمد بها، وكم أنا متضايق حتى تتم! أتظنون أنني جثت لأرسي السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل بالأحرى الانقسام: فإنه منذ الآن يكون في البيت الواحد خمسة فينقسمون: ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة - فالأب ينقسم على ابنه، والابن على أبيه، والأم على بنتها، والبنت على أمها، والحماة على كتتها، والكنة على حماتها». [إنجيل لوقا: ١٢: ٤٩-٥٣].  
وجاء في إنجيل متى: «لا تظنوا أنني جثت لأرسي سلاماً على الأرض، ما جثت لأرسي سلاماً، بل سيفاً. فإني جثت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها. وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أباه أو أمه أكثر مني، فلا يستحقني. ومن أحب ابنه أو ابنته أكثر مني فلا يستحقني». [إنجيل متى: ١٠: ٣٤-٣٧].

فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط . [السيرة النبوية : ص ٢١٨] (٦٥) .

ولكن يمكن لهذا النوع من التصرف أن يثمر فى بعض الأحيان . ففى أحد الأيام ، جاء أبو جهل إلى محمد (ﷺ) قريبا من باب الصفا ، وكاد يُجن عندما رآه مستحوذاً على تلك البقعة ، ووجه إليه إهانات بذئمة ، استمع إليها محمد (ﷺ) وهو صامت ، حتى أنهى أبو جهل تقريره ، وذهب لينضم إلى كبار القوم فى الحرم ، بينما رجع محمد (ﷺ) حزيناً صامتاً إلى منزله . ولكن فى ذلك المساء ، رجع حمزة بعد رحلة صيد خارج مكة ، وعرف بما حدث لابن أخيه ، فذهب يبحث عن أبى جهل وهو مشحون غضباً ، فلما وجده شجه بقوسه قائلاً : هل تسبى كما سببت محمداً؟ فأنا على دينه ، رد على ضربى لك إن استطعت ! .

فما كان من أبى جهل ، الذى يعرف جيداً قوة حمزة الأسطورية بين أهل مكة ، إلا أن اعترف أنه أهان محمداً (ﷺ) بفحش :

قال ابن إسحاق : إن أبا جهل اعترض رسول الله (ﷺ) عند الصفا ، فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف له ، فلم يكلمه رسول الله (ﷺ) ، ومولاة لعبد الله بن جدعان التيمى فى مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشدها شكيمة ، وكان يومئذ مشركاً على دين قومه ، فلما مر بالمولاة وقد قام رسول الله (ﷺ) فرجع إلى بيته ، فقالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك من أبى الحكم أنفاً ، وجده هاهنا فأذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله - عز وجل - به من كرامته ، فخرج سريعاً لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالبيت ، معداً لأبى جهل أن يقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه ، رفع القوس وضربه بها ضربة شجه به شجة منكرة ، وقام رجال من قريش من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه ، فقالوا : ما تراك يا حمزة إلا قد صبأت؟ فقال حمزة : وما يمتنعى منه وقد استبان لى منه ذلك ، وأنا أشهد أنه رسول الله ، وأن

الذى يقول حق، فوالله لا أنزع، فامنعونى إن كنتم صادقين . فقال أبو جهل :  
دعوا أبا عماره، فإنى والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً . [ السيرة النبوية : ص  
٢١٩ ] (٦٦) .

أصبح حمزة مسلماً مخلصاً، وإن لم يكن إسلامه جاء بالطريقة التى كان يتمناها  
محمد (ﷺ)، وقبل نهاية عام (٦ ق . هـ / ٦١٦ م)، فاجأت شخصية أخرى مكة  
بدخولها الإسلام : عمر بن الخطاب !

قرر عمر بن الخطاب أنه حان الوقت لقتل محمد (ﷺ)، فهورول فى طرقات مكة  
شاهراً سيفه إلى دار الأرقم فى سفح جبل الصفا، حيث عرف أن محمداً (ﷺ)  
هناك، لم يكن عمر يعرف أن أخته فاطمة وزوجها أصبحا مسلمين سراً، وقد دعيا  
أحد قارئى القرآن ليعلمهما فى دارهما آخر ما نزل على محمد (ﷺ) . ولكن فى  
طريق عمر لدار الأرقم، اعترضه أحد المسلمين قائلاً بعد أن عرف نيته فى قتل محمد  
(ﷺ) : أو ترى بنى هاشم تاركوك إن قتلت محمداً (ﷺ) ؟ ولماذا لا تذهب إلى  
بيت أختك أولاً؟ . وكان ذلك خوفاً منه على حياة محمد (ﷺ) :

قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب،  
وكانت عند سعيد بن زيد بن نفييل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلمها سعيد بن  
زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام،  
رجلاً من قومه، من بنى عدى بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه  
فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها  
القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله (ﷺ) ورهطاً من  
أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا، وهم قريب من  
أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله (ﷺ) عمه حمزة بن عبد  
المطلب، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، وعلى بن أبى طالب، فى رجال من  
المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله (ﷺ) بمكة، ولم يخرج فيمن  
خرج إلى أرض الحبشة، فلقبه نعيم بن عبد الله، فقال له : أين تريد يا عمر؟  
فقال : أريد محمداً هذا الصابغ، الذى فرق أمر قريش، وسفه أحلامها،  
وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا  
عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا  
ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال : وأى أهل بيتى؟ قال : خنتك وابن  
عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما،

وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما؛ قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختته، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: ﴿طه﴾ يقرنهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينة التي سمعت؟ قالوا له: ما سمعت شيئاً؛ قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشحها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته: نعم قد أسلمنا وأمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافى، وحلف لها بألته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخى، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: ﴿طه﴾. فقرأها، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلنى يا خباب على محمد حتى أتبه فأسلم، فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ)، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله (ﷺ) وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله (ﷺ): «إئذن له» فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله (ﷺ) حتى لقيه فى الحجر، فأخذ حجزته، أو بمجمع رداءه، ثم جبهه [به] جبذة شديدة، وقال: «ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة»، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله (ﷺ) تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله (ﷺ) أن عمر قد أسلم [السيرة النبوية: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣] (٦٧).

ويروى ابن إسحاق قصة أخرى لإسلام عمر، أقل إثارة من السابقة، فيقول: إن عمر اتفق مع بعض أصدقائه على اللقاء في أحد الأمسيات للشرب، ولكن عندما أخلف أصدقاؤه مواعده، قرر الطواف بالكعبة، التي لم يكن بها أحد سوى محمد (ﷺ) يرتل القرآن بصوت خفيض:

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي، عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، أو عن روى ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسرُّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، عند دور آل عمر ابن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلني أجد عنده خمرأ فأشرب منها. قال: فخرجت فجتته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فظفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجتت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله (ﷺ) قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! قال فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعه، فجتت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله (ﷺ) قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبلة، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي، فبكييت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله (ﷺ) صلواته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه، حتى يجزع المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزر بن عبد عوف الزهري، ثم على دار الأحنس بن شريق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنه (ﷺ) في الدار الرقطاء، التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان. قال عمر (رضي الله عنه): فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزر، أدركته، فلما سمع رسول الله (ﷺ) عرفني، فظن رسول الله (ﷺ) أني إنما تبعته لأؤذيه فنهمني [زجرني]، ثم قال: ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال:

قلت : [جئت] لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال : فحمد الله رسول الله (ﷺ)، ثم قال : قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدرى، ودعالي بالثبات . [السيرة النبوية : ص ٢٥٤] (٦٨).

فرض أبو جهل حصاراً على بنى هاشم وبنى المطلب، فلا أحد يتاجر معهم ولا يناكحهم، حتى الطعام، لم يعد مسموحاً ببيعه لهم . دخل كل بنى هاشم وبنى المطلب، المسلمين وغيرهم، فى شعب أبى طالب الذى أصبح بمثابة معتقل جماعى أو جيتو . عندما دخلت أسرة محمد (ﷺ) الشعب، تحرك أبو لهب وأخذ مسكناً فى منطقة عبد شمس . لم يكن الهدف من الحصار قتل العشيرتين جوعاً، ولكن جعلهم يحسون بوطأة الخروج عن التقاليد القبلية . فإذا كان محمد (ﷺ) يريد الانسحاب من الحياة الدنيوية لمكة، فلا يجوز له أن يستفيد من اقتصادها (٦٩).

انهيار الحصار الاقتصادى بعد ثلاث سنوات، وكان كريهاً لكل من كان له أقارب وأنساء فى بنى هاشم وبنى المطلب، فلم يكن يرتاح ضميره لأن يتركهم يتضورون جوعاً . ومسلمون مثل أبى بكر وعمر، من الذين لم تكن عشائرتهم تحت الحصار أرسلوا المؤن التى استطاعوا تديرها من حين لآخر، وعندما كان المكيون يفعلون ذلك، كانوا يفعلونه سراً، فيرسلون الجمال المحملة إلى شعب أبى طالب فى ستار الليل . وفى إحدى المرات، عنف أبو جهل ابن أخى خديجة وهويشق طريقه إلى الشعب، ودار جدال شرس بين الاثنين، ثم شارك فى النزاع الكلامى قرشى ثالث، ازدرى أن يمنع أبو جهل شخصاً من إرسال طعام لعنته، ثم ما لبث أن سدّد ضربة قوية لأبى جهل بفك جممل، سرعان ما أوقعته على الأرض .

طوال ذلك الحصار، كان القرآن يذكر المسلمين بأن الأنبياء السابقين أُنذروا أقوامهم وحاولوا إصلاح طرقهم فى الحياة، وعندما رفضت تلك الأمم ذلك، أهلكم الله؛ لأنهم خرجوا عن النظام الكونى للعالم :

﴿وَتِلْكَ الْأَمْمَاتُ لَأُولِي الْأَلْبَابِ لِيُذَكَّرَ بِهِمْ تُؤْتَىٰ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَلْهَمَهُمْ كَيْفَ كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الكهف : ٥٩] (٧٠).

يختلف البشر عن المخلوقات الأخرى، السمك والنبات والحيوان، والتي هى مسلمة بطبيعتها، ما دامت تعيش على قوانين الكون، أما البشر، فلهم إرادة حرة :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] (٧١).

عندما يظلم القوى الضعيف، ويرفض الغنى أن يشرك الفقير في ثروته، تنتهك قوانين الله، وتحمل الكوارث. ولكن استمر القرآن في حث المسلمين على الصبر، وعدم تحمين فرصة الانتقام من أعدائهم.

كذلك كان هناك بعض رجال قريش الذين يتطلعون للسلام، وبعد فرض الحصار بقليل، عمد وفد منهم إلى محمد (ﷺ)، يقودهم قرشي مهيب كبير السن، اقترح حلاً وسطاً: تعبد مكة الله سنة، والآلهة الأخرى سنة أخرى. ولكن محمداً (ﷺ) رفض العرض، ونزلت في ذلك سورة الكافرون بعرض آخر:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [سورة الكافرون: ٢٥٦] (٧٢).

يعبد الناس آلهة مختلفة، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، الدين هو العقيدة، ولكنه أيضاً «طريقة الحياة» أو «القانون الأخلاقي». لكل إنسان دينه الذي يختاره، وليس هناك حاجة للإكراه على الدين.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦] (٧٣).

في النهاية، أدى ولاء الدم إلى إنهاء الحصار، حيث طالب أربعة من المؤسسة الحاكمة في قريش لهم أقرباء في بنى هاشم وبنى المطلب بإنهائه، وبالرغم من الاعتراضات الغاضبة لأبي جهل، وافق الزعماء الآخرون. لا بد أن ذلك كان يوماً مفرحاً للمسلمين، ورجع بعض المهاجرين إلى الحبشة، معتقدين أن الأيام السيئة قد ولت، ولكن كان ذلك تفاعلاً زائداً. ففي بداية (٣ ق. هـ / ٦١٩ م) توفيت خديجة، لقد كبرت في السن، واعتلت صحتها من ظروف الحياة الخشنة في شعب أبي طالب،

والحصار التجارى والاجتماعى . لقد كانت أقرب رفيق لمحمد (ﷺ) ، ولم يستطع أحد، حتى أبو بكر أو عمر، أن يقدموا لمحمد (ﷺ) ما قدمته خديجة . أطلق المؤرخون الأوائل على ذلك عام الحزن، إذ بعد رحيل خديجة بمدة قصيرة، رحل أبو طالب، فكان لذلك آثار أخطر وأسوأ على محمد (ﷺ) . لقد دمر الحصار أبا طالب، مالياً لتوقف تجارته، وصحياً لما تحمله من مرارة العزلة، والانشقاق مع قريش، فسقط مريضاً ثم مات، وتولى رئاسة بنى هاشم أبو لهب .

\*\*\*